ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١) ﴾

والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذُن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .. ليس هذا وفقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل مَنْ يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٣١) ﴾ [النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ..(٣١) ﴾ [النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم ـ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك المَلل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة .. أما الجنة فهي جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ومعنى « تجرى تحتها » أى : أنها تجرى تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١) ﴾ [النحل]

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فلَكَ مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لكَ مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شىء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدَّد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حَسْبَ مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبى ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآنى :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١)﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر »[1] .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا فى الدنيا ، وبما حرَموا منه أنفسهم من مُتَع حرام .. وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ[2] فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدَّم أو فعل من قبْل . قال تعالى : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس] أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ٣٢٣/١] .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ[1] يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تتوفَّاهُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : تأتى لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّى إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملَك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى ملَك الموت :

﴿ قُلْ يَتوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة]

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتوفَّى .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل ملَكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفِّذون أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

تقابل الآية السابقة :

---

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. (٣٢) ﴾ [النحل] ستة أقوال : **الأول** : طاهرين من الشرك . **الثانى** : صالحين . **الثالث** : زاكية أفعالهم وأقوالهم . **الرابع** : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . **الخامس** : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . **السادس** : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلّط . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٦] .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

والطيّب هو الشيء الذى يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشيء الذى تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل مَلَكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيِّب القيم وطَيِّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .

ولذلك حينما يدَّعى اثنان المحبة فى الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أنْ ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذى قبله ؛ لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان فى الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفى الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيب من أنهم طهَّروا أنفسهم من دَنَس الشرك ؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم أخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم فى شيء ؟

وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلَخّص ما قدّموه فى الدنيا ، فيرْون خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛

ذلك لما عـاينه من طيب عمله ، ولما يسـتبشـر به من الجزاء عند الله تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحـالة تماماً نرى أهل الشـقاوة ، ومـا هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : حينما تتـوفّاهم الملائكة يقولون لهم سـلام ؛ لأنكم خرجتم من الدنيـا بسـلام ، وستُقـبلون علـى الآخرة بسـلام ، إذن : سـلام الطيـبين سلامٌ مـوصول من الدنـيا إلى الآخرة ، سـلامٌ مُتـرتّب على سلامة دينكـم فى الدنيا ، وسلامة إقبـالكم على الله ، دون خوف فى الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

ثم يأتى السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وهل هناك أفـضل وأطيب من هذا السـلام الذى جـاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هـنا من سلام أهل الأعراف على الـمؤمنين الطيـبين وهم

---

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهى الفوج والجماعة. [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

فى الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجزوا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف فى مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

---

(١) معناه : فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقيل : معناه . فأمه التى يرجع إليها ويصير فى المعاد إليها هاوية ، وهى اسم من أسماء النار . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٢] .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل]

أي : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح في الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :

« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1] .

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟

الله تعالى يُوحي لرسوله ﷺ الحديث كما يُوحي له الآية ، فكلاهما يصدر عن مشكاة واحدة ومصدر واحد[2] .. على حَدِّ قوله تعالى :

﴿وَمَا نَقَمُوا[3] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فالحَدَثُ هنا واحد ، فلم يُغْنِهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدَث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلَّف الإنسانَ بعد سنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالي عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلَّفه كلَّفه بشيء يعود على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود في سننه (٤٥٩١) من حديث المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه » .

(٣) نقم منه : عاقبه . ونقم الشيء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ ربَّه الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وفَّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

يريدون أن عملهم سبب عاديّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوِّى هذا بقوله تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفي الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم ربّهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوّق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدَدْتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلأن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتي أمرُ ربِّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً ؟! فلن يأتيكم خير أبداً .. كما قال تعالى في آيات أخرى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ① ﴾ [القمر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء]

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتى لهم بشَرٍّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم فى حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة[1] الكبرى وهى القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [النحل]

أى : ممَّن كذَّب الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .. (٣٣) ﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾ [النحل]

وهذا ما نُسمِّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشىء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم فى الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فَوَّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) طم الأمر : اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدته وعظم هوله . [القاموس القويم ٤٠٧/١] .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ[1] بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمِّى ما يُفعل بهم سيئة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمِّى جزاء السيئة سيئة فى قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

وهذه تُسمَّى المشاكلة[2] ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمِلُوا ﴾ العمل هو مُزَاولة أىِّ جارحة من الإنسان لمهمتها ، فكُلُّ جارحة لها مهمة . الرِّجْل واليد والعَيْن والأذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقى الجوارح أخذتْ النصف الآخر ؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوَّل الأساسى .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لابُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

---

(١) حاق به الشيء : نزل به وأحاط به . قال الزجاج فى معنى الآية : أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب - مادة : حيق] .

(٢) المشاكلة : مصطلح فى بديع القرآن ومعناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً ، والأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة] ، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . [الإتقان فى علوم القرآن ٢/ ٢٨١] .

مؤمن ، ثم يأتى دَوْر الفعل ليُساند هذا القول ؛ لذا قال تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقى الحواس ، فهى أول جارحة فى الإنسان تؤدى عملها ، وهى الجارحة التى لا تنقضى مهمتها أبداً .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت فى آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

ثم هى آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم .. (٢٠) ﴾ [فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أى : عطلنا الأذن التى لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار فى كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى فى تكوينهم الجارحى شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ [النحل]

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

وقالوا :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..(١٠) ﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجّلوا العذاب فقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذي تستهزئون به . فقال :

---

(١) معناه : أئذا متْنا وصرْنا تراباً وعظاماً فضللْنا في الأرض فلم يتبين شيء من خلقنا . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشيء . يقال : أعطني كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبي ٥/٤٠٥٩] .

﴿وحَاقَ بِهِم .. (٣٤)﴾ [النحل]

أى : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿واللَّهُ مِن ورائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥)﴾

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتىَ الفعل نصاً فى مطلوبه لا يُذكر المتعلق به .. فلم يَقُلْ : أشركوا بالله .. لأن ذلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥)﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هى الشماعة التى يُعلّق عليها الكفار خطاياهم ـ شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيقول المسرف على نفسه : ربُّنا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهدى ، وهو الذى يُضل ، وهو الذى جعلنى أرتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق - والنهاية : فلماذا يعذبنى إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضية غير واضحة أمامه .. ولكى نزيل عنه هذا الغموض نقول له : ولماذا لم تقُل : إذا كان الله قد أراد لى الطاعة وكتبها علىَّ ، فلماذا يثيبنى عليها .. هكذا المقابل .. فلماذا قُلْت بالأولى ولم تقُلْ بالثانية ؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتْ فى عقلك .. أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل كلها شَرّ ؟ أمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرّ دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضدّه ، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبيَّنَ لك الجزاء ، فقال : اعمل الخير .. والجزاء كذا ، واعمل الشر .. والجزاء كذا .. وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتبه عليَّ .. وهذا عجيب ، وكأنَّى به قد اطَّلع على اللوح المحفوظ[1] ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فراحَ فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنتَ طائعاً بشُرْبك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المحفوظ كى تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أزلاً ؛ لأنه علم أنك تفعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلق لا حدودَ له .

ونضرب مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد الذى يلاحظ ولده فى دراسته ، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ فيتوقع فشله فى الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل توقَّع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسْبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجَّه المؤمنين إلى الكعبة بعد أنْ كانت وجْهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى :

---

(١) اللوح المحفوظ : شيء لا يعلمه إلا الله . فيه ما قدَّره الله وقضاه على الخلائق .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ[1] فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوِّتوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجِّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء . وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] . فأتانا آت فقال : إن القبلة قد صرفت إلى الكعبة . وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن ركوع فتحولنا . فبنينا على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

وهذه الآية : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة فى دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم[1] مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا حُجَّة لهؤلاء الذين يُعلّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجرْأة على الله عز وجل فيُشبِّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ فى اليَمِّ مكتُوفاً وقَالَ لَهُ ... إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماء

---

(١) أى : وراءهم سائرون متخذين إياهم قدوة ، ومهتدين بهديهم .

وما يفعل هذا إلا ظالم !! تعالى الله وتنزَّه عن قَوْل الجُهَّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذى يخلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل ربّنا هو الذى يخلق الفعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك فى الحقيقة خلافٌ .. ونسأل : ما هو الفعل ؟ الفعل توجيه جارحة لحدث ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدث ، ما الذى فعلته أنت ؟ هل أعطيت لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها ؟ أم أن إرادتك هى التى وجَّهتْ حركتها ؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التى حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجَّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله - فى حالة المعصية - وإلى ما يحبه الله فى حالة الطاعة .

كذلك لا بُدَّ أنْ نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية .. فالمراد الكونىّ هو ما يكون فعلاً ، كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعى : هو طَلَبُ الشىء لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ . إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى

غيـر مُراده سبـحانه وتعـالى ؟ حاشا لله ومـعنى ذلك أن كُفْـر الكافر مُراد كونىّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُـراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كـفر المؤمن ، المـؤمن حقيـقة لم يكفر . إذن : هو مـراد شرعى وكـذلك مـراد كونى ، وهـكذا ، فلا بُدَّ أن نُـفرّق بيـن المراد كـونيـاً والمراد شرعياً .

ولذلك لمـا حدثت ضجـة فى الحرم المكى منـذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضـهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧)﴾ [آل عمران]

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه ؟!

والحـقـيقـة أن هؤلاء خلطـوا بين مراد كـونى ومـراد شـرعى ، فالمقصود بالآية : فَمَنْ دخله فأمِّنوه . أى : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شـرعى قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المراد الكونى فـهو الذى يحدث فعـلاً . وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ[1] وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة]

ثم يقول تعالى مقرراً :

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]

أى : هذه سُنّة السابقين المعاندين .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه فى حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح فى الاختيار .. وهى العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل فى :

---

(١) البَحيرة : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها أى : شقوها وأعفوها أن ينتفع بها ، ولم يمنعوها من ماء ولا مرعى .

السائبة : الناقة التى تُسيَّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى فتعد مباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٢/٣٤٠].

الحامى : من الإبل الذى طال مُكثه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه. [المعجم ـ مادة : حما] .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾ [النحل]

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلِّغ ﷺ ، فقال تعالى فى حَقِّ هؤلاء :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم..(٢٠)﴾ [الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف]

وخاطبهم سبحانه فى آية أخرى :

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)﴾ [القلم]

وكلمة ﴿الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى : لا بُدّ أن يُبلّغ المكلَّف ، فإنْ حصل تقصير فى ألاّ يُبلَّغ المكلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصلْه . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى الحَثِّ على تبليغ دين الله لمن لم يصلْه الدين .

كما قال ﷺ : « بلِّغوا عنِّى ولو آية »[1] وقوله ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعَاهَا ثم أدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٦١) ، وأحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٠٢) ، والدارمى (١/١٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقوله :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿ أَرْسَلْنَا .. (٢٦) ﴾ [الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم - عليه السلام - حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وقال في آية أخرى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم - عليه السلام - والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلِّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلَّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهى ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلِّغ فلا يُبلِّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضَعُون لأنفسهم القوانين التى تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتى أهمية وَضْع القوانين ونشرها فى الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنساناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن ؟ فما علّة ذلك ؟

---

(١) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة فى مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة فى أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون[1] الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ فى بلد على حدَة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً فى أمريكا فنعلم بها فى نفس اليوم .. إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أنْ يُرْسلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨)﴾ [سبأ]

أى : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أى : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

---

(١) طفف المكيال : بخسه ونقصه . [المعجم الوجيز ـ مادة : طفف] .

هذه هى مهمة الرسل :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أىِّ شىءٍ تنهانا ؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْى عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلية وتَخْلية : التحلية فى أنْ تعبدَ الله ، والتخلية فى أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضية الإيمان حيث نَفْى فى : « أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفى التعدُّد ، ويُثبت الوحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : خلِّى عن العذاب .

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : حلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : ابتعدوا عن الطاغوت .. فيكون المقابل لها : تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذُّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه .. وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً إلى باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشىء التافه القليل ، فوجد الناس يتقرَّبون إليه ويُداهنونه اتقاء شره ، فإذا به يترقَّى فى باطله فيشترى لنفسه سلاحاً يعتدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأموال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة[1] وتقوم بها عن الفاعل الجانى ، ذلك لما وقع عليها من مسئولية تَرْك هذا الجانى ، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبالغة فى الفعل نجده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

---

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان العرب - مادة : عقل] .

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظُلمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤)﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص]

ويُحكَى فى قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعى النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟! أيُكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فإنى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧)﴾ [الزمر]

ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى :

---

(١) استخفه : استضعف عقله وسخَّره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحُمْق . [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِى .. ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرَّة للمذكّر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. ﴿٣٦﴾﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حُجَّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتى للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدىً وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكّة .. فى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى .. (٥٦) ﴾ [القصص]

أى : لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرِف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكان الله تعالى فى خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتى الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونةٍ بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

حقَّتْ : أى أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرموا الهداية .

ونذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان ـ ولله المثل

الأعلى ـ هَبْ أنك سائر فى طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضلك أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كدْتُ أضلّ الطريق ، وجزاكَ الله خَيْراً .

فلمّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن فى هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرّد دلالة ، أما الثانية فهى المعونة ، فلمّا صدَّقْته فى الدلالة أعانكَ على المدلول .. هكذا أمْرُ الرسل فى الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق .. فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى :

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا .. (٧٥)﴾ [مريم]

ثم يُقيم لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ الدليلَ على بَعْثة الرسل فى الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدِّق ، قال تعالى :

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة فى الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وهل نحن نسير فى الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثْبت العلم صدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هى هذه اليابسة التى نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير فى الأرض ، كما نطق بذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه العزيز .

ونقف أمام ملْحظ آخر فى هذه الآية :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى آية أخرى يقول :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنُّن فى العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أى : يأتى النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما فى العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخى . أى : مرور وقت بين الحدثيْن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ(١) (٢٢)﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرُوا .. (٣٦)﴾ [النحل]

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليَروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيِّرهم ، ولم يستطيعوا فَكَّ طلاسمه حتى الآن .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس] بعثه من قبره . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أُخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى :

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] (٩٨)﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قَصَص هؤلاء السابقين الكثير كما في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

وقال :

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[3] عَذَابٍ (١٣)﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذي يأتي بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير .. كلا :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) الركز : الحسّ والصوت الخفيّ تسمعه من بعيد . [لسان العرب - مادة : ركز] .

(٢) يعني : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . [تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨] .

(٣) قال الفراء : هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب - مادة : سوط] .